الرثاء في شعر الخنساء بين الجاهلية والإسلام

أ.م.د. عبدالرزاق حسن رحماني
بجامعة هرمزكان مختار عابدي (جامعة شيراز/ إيران)
(rahmani6038@gmail.com)

المخلص:

الخنساء إحدى الشاعرات العرب التي أدركت الجاهلية والإسلام ويشتمل مضامين أشعارها الفخر والرثاء ويغلب الرثاء على الفخر لما حدث لها في حياتها من موت أخويها فيدور أكثر أشعارها حول رثاء أخويها في الجاهلية والإسلام؛ فلذا تريد هذه المقالة أن تدرس الرثاء في نظرة الجاهليين والإسلاميين من خلال أشعار الخنساء والوصول إلى الاختلاف ما بين أفكارها في هذين العصرين وتأثير الإسلام عليها وعلى أفكارها.

الكلمات المفتاحية: الأدب الجاهلي، الأدب الإسلامي، الرثاء، الموت، الخنساء.

المقدمة:

من الصعب تحديد و تعيين أول من نظم شعراً في الرثاء؛ لأنه ينبع من أعماق النفس عند النوائب والكوارث، والرثاء يعرب عن الآلام الباطنية في صورة ألفاظ وعبارات ملائمة به بحيث تؤثر في الآخرين، وتشركهم في آلام الشخص المرثي؛ فإذن لا يمكن أن نعين زماناً خاصاً لبداية الرثاء في تاريخ الأمم، ولاسيما عند العرب؛ لأن حياة العربي مصاحبة للحرب، و من ثم الكوارث التي تهز القلب هزا شديداً، وتؤثر في القلوب تاثيراً عظيماً.

بدأ الرثاء ينمو عند الأدباء حتى وصل الذروة في رصانة الألفاظ و دقة التعابير، وعلو المضامين، وظهر بينهم الشعراء الكبار الذين أصبحوا مشهورين بسبب استعمالهم الجيد لهذا الفن رجالاً ونساءً، ومنهم الخنساء التي تُعرَف بمراثيها المؤلمة المحرقة التي تُحرق القلب، و تمزَقه حزناً؛ لأنَ نفس الشاعرة تضطرم من شدة الحزن، و تعبّر عن حزنها بألفاظها الجميلة والرصينة والرقيقة. فإنّ الإنسان يبكي على ما يؤثّر في نفسه تأثيراً حَسَنَاً أو علي ما يُؤثّر فيه تأثيراً مؤلماً ويحزن لِفراق الأحبه، وفقدان حياتهم من أثر الموت المترصِّد له في بيئة قاسية لا تهب له الأمان و الطمأنينة؛ فالخنساء قد بكت على أخويها صخر ومعاوية اللَّذينَ كانت تحبّهما و هما قُتِلا، و عَبَّرت عن بكائها وإحساسها بشعرها؛ لأنَ صخر ومعاوية كانا مصدر فخر واعتزاز ولها في حياتها المضطربة المليئة بالمخاطر و المشكلات. وهذا البحث يريد أن يدرس أشعار الخنساء في الجاهلية و الإسلاميّة ومقدار تأثير الإسلام عليها و على عقائدها و على شعرها.

هذا البحث التفتا إلى اعتقاد الجاهليين في الموت، فعالج عقيدة المسلمين في الموت، ثُمّ درس أشعار من الخنساء قد أنشدتها في العصرين الجاهلي و الإسلامي استناداً إلى الشواهد التي تبلورت فيها نظرتها إلى الموت في الإسلام و قبله؛ لكي يتمّ الاستنتاج حكماً شاملاً و مدقّقاً حول نظرتها من الموت بالمقارنة بين الأشعار التي أنشدتها في الجاهلية، ومقدار اختلافها عما قالتها بعد إسلامها.

الرثاء وأنواعها:

الرِّثاء لغة من رَثَى؛ رَثْياً ورثاءً ورثايةً ومرثاةً ومرثيةً، ورثى الميّت أي بكاه بعد موته وعدّد محاسنه[١].

واصطلاحاً «هو بكاء الميّت والتّفجع عليه وإظهار اللوعة لفراقه والحزن لموته وعدّ خلاله الكريمة»[٢].

أمّا الرثاء في الأدب فهو الشعر الذي يعبّر فيها الشاعر عن الحزن واللوعة، الّتي تنتابه لغياب عزيز فجع بفقده، بتعداد مناقبه والإشادة بمآثره والتوجع عليه، وتتردد في الرثاء صولة الموت وسلطان الفناء، ويتضمن أبياتاً حكمية تدعو إلى الاعتبار والزهد.

الرثاء ثلاثة أنواع وهي[٣]:

الندب: وهو النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحرقة التي تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة، إذ يولول النائحون والباكون ويصيحون ويبالغون في العويل النحيت والنشيج وسكب الدموع؛ ولهذا النوع من الرثاء خمسة ألوان هي: ندب الأهل والأقارب– ندب الرسول وآل البيت– ندب الدول– ندب البلدان– ندب الشعراء أنفسهم.

ولعل أقدم صور الندب والنواح في شعرنا العربي هي صورة ندب الأهل والأقارب والنواح عليهم؛ لذلك استخدمت الخنساء هذا الفن التعبيري، والشكل المادي لتجسيد صور الحزن والأسى والنواح والبكاء الذي يعبر عن عواطف داخلية، تعكس آثار الصدمة ا لنفسية التي تعاني منه جرّاء فقدها لأعز الناس عندها، فالصورة التي نجدها في هذا المحور عند الخنساء تتمثل في ندب المرثي والنواح عليه وبكائه، فيرتفع نشيجها، فتثير الأشجان، ولعل خير ما يصور ذلك ويؤازره شيوع المطالع البكائية التي تعبر عن شدة الحزن وكثرة البكاء ويمكن أن تعود هذه الظاهرة إلى "الموقف" "والوقت"، وخاصة عند الشعراء الذين استوت قصائدهم أعمالا فنية رائعة، ونعني بالموقف أن هذه القصائد كانت من "بنات الساعة "، ونعني بالوقت أن الشاعر كثيرًا ما كان يسرع للتعبير عن نشوة النصر والظفر[٤].

أخذت الخنساء في مطلعها هذا تنادي عينها مستخدمة أداة النداء (يا) لتفرغ في هذا المد ما في جوفِها من حرقةٍ وما يكوي ضلوعها من ألمٍ يمزق دواخلها لعظم مصابها، فتقول[٥]:

يا عينِ جودِي بِدمعٍ مِنْكِ مِغزارِ وابكِي لصخرٍ بِدمعٍ مِنْكِ مِدرارِ
إنِّي أرِقت فَبِتُّ اللَّيلَ ساهِرَة كأَنَّماُ كحِلت عينِي بِعوارِ

وقد يجمد ماء العين ويجفّ دمعها عندما تتذهل النفس وتفاجأ بالمصاب الشديد الوطأة القريب العهد بالمصيبة وهذه الحالة حلّت بالخنساء فلذلك نراها في أغلب قصائدها تخاطب عينها أن تجود بالدمع الغزير معنفة ايّاها[٦].

التأبين: و هو النوع الثاني للرثاء أصله الثناء على الشخص حيا أو ميتا ثم اقتصر استخدامه على الموتى فقط و هو الوقوف على قبر الميت وذكر مناقبه و تعديد فضائله، ولهذا النوع من الرثاء ثلاثة ألوان هي: تأبين الخلفاء و الوزراء– تأبين العلماء و الأدباء– تأبين الأشراف والاجواد والقادة.

ويتجلى هذا القول": إذا عرضنا شعر الشواعر في هذا المجال رأيناه لا يقتصر على رصد الأحزان فحسب، بل نجد فيه أيضًا صورًا لصفات الرجال العظام، حيث يحظون لديهنَّ بالإعجاب؛ وقد وجدت المرأة في الشَّجاعة والكرم الضَّالة المنشودة، فامتدحتهما أينما وجدنها؛ لهذا بكتِ الفرسان وذكرتهم لبسالتهم وشجاعتهم[٧]. وصورة التأبين في شعر الخنساء تتمثل في تعداد مناقب السادة من مُضر، فترى في فقدهم خسارة القبيلة جمعًا؛ لذلك تجعل المرثي أنموذجًا للشجاعة، والكرم، والوفاء، وحماية الجار، والسيادة، والشرف، والعفة، وكل ما يزين الرجل من صفات محمودة، حتى برعت في هذا اللون الرثائي، وأضفت على مرثيها كل الصفات المعنوية والمادية.

العزاء: وهذا النوع الثالث و الأخير أصله الصبر ثم اقتصر استعماله في الصبر على كارثة الموت و أن يرضى من فقد عزيزاً بما فاجأه به القدر؛ فهي تجد في بكاء غيرها ما يعزيها عن أخيها. لهذا النوع من الرثاء لونيين اثنين هما: العزاء في الأهل– العزاء والتهنئة.

وجدير بالذكر أنَّ الرثاء عند الخنساء كان من نوع الندبة وهو ندب الأهل والأقارب؛ ومن قصائدها في ذكر صَخْر، تقول:

قَذىً بِعَينِك أَم بِالعَينِ عُوّارُ أَم ذَرَفَت إِذ خَلَت مِن أَهلِها الدارُ
كَأَنَّ عَيني لِذِكراهُ إِذا خَطَرَت فَيضٌ يَسيلُ عَلى الخَدَّينِ مِدرارُ
تَبكي لِصَخرٍ هِيَ العبري وَقَد وَلَهَت وَدونَهُ مِن جَديدِ التُربِ أَستارُ[٨]

الخنساء و حياتها:

هي تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، من بني سليم، من قيس عيلان، من مضر، أشهر شواعر العرب وأشعرهن على الإطلاق، أسلمت مع قومها بني سليم، وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يستنشدها ويعجبه شعرها [٩]، تكني أم عمرو وتقلب بالخنساء؛ و الخنس: تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في أرنبة؛ ولقبها

غلب على كنيتها؛ وكانت هي من أجمل نساء زمانها فخطبها دريد بن الصمة فارس جشم، فرغبت عنه[١٠]، ثم تزوّجت رواحة بن عبد العُزّى السُّلَميّ، وولدت له عبدالله ثم خلف عليها مِرْداس بن أبي عامر السُّلَميّ، فولدت له زيداً ومعاوية وعمراً[١١]؛ وكان للخنساء أخوان، أحدهما معاوية، وهو أخوها لأمها والثاني صخر، وهو أخوها لأبيها وكان أحبهما إليها؛ أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها صخر ومعاوية وكانا قد قتلا في الجاهلية؛ لها ديوان شعر فيه ما بقي محفوظاً من شعرها؛ وكان لها أربعة بنين شهدوا حرب القادسية فجعلت تحرضهم على الثبات حتى استشهدوا جميعاً فقالت: لهم من أول الليل «يا بني إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو، واعلموا أنّ الدار الآخرة خير من الدار الفانية واصبروا وصابروا ورابطوا واتّقوا لعلكم تفلحون» فقاتلوا حتى استُشهدوا جميعاً، فلمّا بلغها الخبر قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم[١٢].

أنَه كان موصوفاً بالحلم، مشهوراً بالجود، معروفاً بالتقدم والشجاعة ثم قُتِل أخواها معاوية وصخر في الجاهلية، وحزنت عليهما حزناً شديداَ، وأخذت برثائهما والبكاء عليهما حتى غُمِيت؛ وقيل: «إن عمرو بن الشريد أبا معاوية وصخر، كان يأخذ بيدي ابنيه ويقول: «أنا أبو خيري مضر » فتعرّف له العرب بذلك»[١٣].

في أول أمرها كانت تنشد بيتين أو ثلاثة أبيات، ومن بعد قتل أخويها بدأت تقرض الشعر طويلاً في الرثاء وقصدت باب الشعر الواسع؛ وكان النابغة الذبياني في سوق العكاظ يعجب بشعرها و يقول: والله لولا أنّ أبا بصير أنشدنى (آنفا) لقلت إنّك أشعر الجنّ والإنس...ثم قال للخنساء: أنشديه، فأنشدته، فقال: والله ما رأيت ذات مثانة أشعر منك! فقالت له الخنساء: والله ولا ذا خصيين[١٤].

هناك دليل على أن يكون شعر الخنساء هو الأفضل في الرثاء بين الجاهليين ومَن جاء من الشعراء من بعدها ذكوراً و إناثاً.

الأول: هو أنّ مشاعر النساء تلائم الرثاء مُلائَمة ذاتيّة، وكان إظهار الحزن أكثر مناسبة للنساء منه للرجال؛ والآخر: العلاقة الوطيدة التي كانت بين الخنساء وأخويها هو من الأسباب الرئيسية التي أثّرت في رثاء الخنساء تأثيراً بالغاً، ولا نستطيع أن نهمل أثر هذه العلاقة، ومن ثَّمَّ نظرها إلى الموت، سبب آخر يجعل أشعارها في الرثاء حزينة تذرف لها العيون، وهذه النظرة هي أنّ الموت نهاية الحياة ولا عيش بعد الموت ويفنى الميّت بموته والسبب الأخير هما البطلان اللذان تبحث عنهما في آمالها فهما بطلان في الحرب والسخاء.

عندما نتأمّل في شعرها نصل إلى أنّ نبوغ الخنساء كان نوعاً من التسامي والذكاء وعبقريّة النبوغ الذي كان مثلاً للكمال حتى إذا شاهدت قتل أخويهاٰ، وتبدّل لها وجه الحياة فعادت حزينة تذرف الدموع، وتبدّل شِعْرها إلى شعرٍ يشوبه الحزن والألم؛ على سبيل المثال:

لاتَخَلنِي أنّي نَسِيتُ و لابُلَّ فُؤَادي و لو شَرِبتُ القَرَاحا
ذِكرَ صَخرٍ إذا ذَكرتُ نَداهُ عِيلَ صَبرِي بِرُزئِهِ ثمّ باحا
إنَّ في الصَّدر أربعاًيَتَجَاوَبنَ حَنيناً حَتَي كسَرنَ الجَنَاحَا
دَقَّ عَظمِي وَ هاضَ مِنّي جَنَاحي هُلك صَخرٍ فَمَا أُطيقُ براحا[١٥]

تَجمَع الخنساء في رثائها بين المدح والرثاء، وفي هذا تخالف شعراء الجاهلية، وهم قد فرّقوا بين المدح والرثاء، ولكن الخنساء تَرثي أخاها، وهي تتكلّم عن شجاعته وسخائه وصفاته، ومعظم قصائدها مقطوعة بسبب الظروف الفُجائية التي قالت فيها الشعر، وقصائدها لا تشتمل على المقدمات خلافاً لشعراء جاهليين آخرين، والشيء الذي بلغت الانتباه في شعرها أنه كان استجابة قويّة لبواعث فُجائية اتسمت بالحرارة و الصدق القائم على تعبير خلجات نفسيَّة.

قال النويهي عن الصدق في الأدب: «أن يصدق الأديب في التعبير عن العاطفة التي أحسّ بها فعلاً، و إعلان عقيدته التي اعتقدها، و لسنا نعني به أن يكون حرفيّاً للواقع الخارجي في كل حذافيره»[١٦] وبهذا ترى أن شعر الخنساء كان مطبوعاً صادقاً.

وصلت الخنساء في الشعر إلى مكانة راقية حتى صار مجرد اسمها عند العرب مثلاً يُضرَب في مناحة الأقوام وبكاء الإخوان الكرام وقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسَلَّم: يا عديّ: «فأشعر الناس فالخنساء بنت عمرو، وأما أسخى الناس فمُحَمّد وأما أفرس الناس فعلي بن أبي طالب عليه السلام»[١٧].

الموت عند الشعراء الجاهليين:

الشعور بمشكلة الموت لا يتحقق لدى الإنسان إلا حينما يشعر بشخصيته وذاته المستقلة عن الآخرين والموت هو قضيةِ شخصيَّة برأي حسن الزير حينما يعتقد كلما كان الشعور بالشخصيّة أقوى وأوضح، كان الإنسان أقدر على إدراك الموت[١٨]؛ ولِكل حضارة من الحضارات حالة روحيَّة تُشكل أساس تفكيره واعتقاده وسلوكه والتفكر العربي قبل الإسلام يرتبط بالظروف التاريخية أو الحالات التي عايشها؛ لأنَّ تفكيره يدور حول هذه الظروف والحالات.

لقد أحاطت بالإنسان العربي قبل الإسلام ظروف قاسيَّة، يحس أنّه تحت تأثير وطأة الموت الذي يأتيه من كل مكان بشتى صوره فإمَّا بالحروب، أو الثأر أو الجوع بحيث لا مفرّ منه ويقول زهير بن أبي سلمى وهو يرى صورة من الفَناء في كل شيء:

رَأَيْتُ المَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِىء يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ[١٩]

جعل الجاهلي الدهر سبب الموت، وله سلطان وقدرة، وهو يفعل بالإنسان ما يريد، وأوضح ما يصور القرآن الكريم من عقائد العرب قبل الإسلام عمّا بعد الموت إنكارهم الحياة الأخرى وما يأتي فيها من حساب وجنّة ونار، ويقول سبحانه وتعالى: « وَكانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ*أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ»[٢٠]؛ والشعر الجاهلي لم يكن غير الصورة الناطقة التي تمثّل عصره أصدق تمثيل كما يقول طه حسين: «الأدب متصل بطبيعته اتصالاً شديداً بأنحاء الحياة المختلفة سواء منها ما يمسّ العقل و ما يمسّ الشعور وما يمسّ حاجاتنا الماديّة»[٢١].

عندما ندرس الرثاء الجاهلي ونَتَعَمّقُ فيه نراه امتزج بالوقوف على الأطلال وكانوا يعبّرون عن جزعهم عند الديار والقبور ويدعون لها بأن يَنزِلَ المطر عليها وتُسقَى وكانوا يردّون بلى الأطلال إلى الدهر، وهنا نرى الصلة بين الرثاء وبكاء الديار في شعر لبيد حيث يبكي على الديار كما كان يبكي على الأشخاص، والإنسان عنده مثل الديار من حيث الفَناء.

ومَا النّاسُ إلاّ كالدّيارِ وأهْلها بِها يَوْمَ حَلُّوها وغَدْواً بَلاقِعُ[٢٢]

شعر الخنساء قبل الإسلام:

نُقَسِّم شعر الخنساء دون أن نلزم أنفسنا بتاريخ معين على أساس موضوعاته قسمين، الأول: جاهلي، والثاني: إسلامي؛ أمَّا القسم الجاهلي فيطابق العقائد الجاهلية مثل الشكوى من الزمن والمنون كما شكا غيرها من الجاهليين، وأمّا القسم الإسلامي فيخالف العقائد الجاهلية؛ يعتقد مصطفى عبد المجيد أنَّ رثاء الخنساء يُمَثِّل اتجاهين، أولهما: تهويلها في تصوير أحزانها، والآخر: تحاول أن تتأسى بأنها واحدة من البشر أو الذين كتب عليهم هذا المصير، وتبالغ الخنساء في تأبين الميّت مع حزنها؛ لأنها تشعر بأنَّ ذلك واجبها المتوقّع منها[٢٣]. وتقول:

وما ليَ لا أبكي على مَنْ لَوَ انَّهُ تَقَدَّمَ يَومِي قَبلَهُ لَبَكى لِيَا[٢٤]

وأما أسباب حزنها بعد أن فقدت الأخوين، يرجع إلى عدة عوامل، منها: الدهر الذي هو سبب الموت، وتقول:

إن يَك هذا الدَّهرُ أودَي بِهِ وَصَارَ مسحاً لِمَجاري القِطار
فَكلُّ حَيٍّ صائِرٌ لِلبِلى وكلُّ حَبلٍ مَرّةٌ لِانبِثَار[٢٥]

و تقول:

تَبكي لِصَخرٍ وقدْ رابَ الزَّمانُ به إذ غَالَهُ حَدَثُ الأيَّامِ والقَدَرُ[٢٦]

و تقول أيضاً:

فَجَّعنِي رَيْبُ هذا الزمانِ بِهِ وَالمَصائِبُ قَد تُفجِعُ[٢٧]

وشكاية من الدهر و الزمن من عقائد الجاهلية، لأنَّ الجاهليين كانوا يعدون الزمان أو الدهر سبب الموت.

من بعض أشعارها نحصل على هذه الفكرة بأن الزمن ليس عادلاً، فهو يختار أفاضل الناس ويترك الأشرار، وتتأذى شاعرتنا من العيش مع هؤلاء الباقين وتَنصرف إلى ذمّهم وتقول:

إنَّ الزمانَ وما يَفنَى له عَجَبٌ أَبقَى لنا ذَنَباً واستُوصِلُ الرأسُ[٢٨]

وتقول أيضاً:

ما لِذا المَوتِ لا يَزالُ مُخيفاً كلَّ يَومٍ يَنالُ مِنّا شَريفاً

مولَعاً بِالسَراةِ مِنّا فَما يَأ خُذُ إلّا المُهَذَّبَ الغِطْرِيفا[٢٩]

ومن بواعث حزنها تمسكها بالفضيلة والأخلاق؛ والفضيلة في رأي أحمد أمين هي الخُلَق الطيّب وهذه صفة نفسيَّة لا مظهر خارجي، وأمّا السلوك هو المظهر الخارجي[٣٠] وهي عندما تبكيهما فإنَّما تبكي على هذه السجايا الحميدة تستنزف الدموع وتقول:

يا عَينِ مالَك لاتَبكينَ تَسكاباً؟ إذا رَابَ دَهرٌ، وكان الدَّهرُ رَيّابا

فأبكي أخاك لأيتامٍ و أرْمَلَةٍ، وَ أَبكي أخاك، إذا جاورتِ أجنابا[٣١]

في هذه الأبيات تنسب الموت إلى الدهر، وتسكب الدمع وتعدِّد الصفات الحميدة للميّت؛ ويصبح طعم الحياة مُرّاً عند الشاعر ويحس أنّ من العدل أن يَحرم نفسه من المتع الذي حرم منها الميّت وتقول:

فَأَصبَحتُ لا التَذُّ بعدك نِعمَةً حَيَاتِي وَ لا أبكي لِدَعوَةِ ثَاكِلِ[٣٢]

هذه الآراء والأفكار تناسب العقائد الجاهلية؛ لأنَّ الإسلام دائماً يدعو إلى الصبر.

ورد في ديوان الخنساء أنَّ دم القتيل لا يفتأ يطالب بثأره كما أتت بالحزن والأسى على الراحل الذي لا يمكن أن يعوّض وعدّدت فضائله[٣٣]؛ وفي بعض الأحيان نجد في شعر بعض الشعراء نزعة إلى التفكير في الحياة والموت، مثل عبيد بن الأبرص:

مَن يَسألِ الناسَ يَحرِمُوه و سائلُ اللّهِ لا يَخيبُ[٣٤]

يبدو من شعر بعض شعراء الجاهلية مثل الأبرص، لبيد وزهير بأنّ لهم اعتقاداً باللّه سبحانه وتعالى ويوم القيامة والحساب؛ كما نرى عند زهير:

فَلاَ تَكتُمُنَّ اللهَ مَا فِي نُفُوسِكمْ لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكتَمِ اللهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ فِي كتَابٍ فَيُدَّخَرْ لِيَوْمِ الحِسَابِ أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ[٣٥]

هذا من تأثير النصرانيّة و تعاليمها على شعراء الجاهلية.

لقد مرت الخنساء بأزمة نفسية حقيقية لازمتها طوال حياتها تتمثل بيوت أخويها صخر ومعاوية، ولاسيما موت صخر الذي شكل في شعرها ظاهرة بارزة تتمثل برمزية مأساوية على الرغم من أنها مرت بحالة نفسية قبل ذلك متمثلة بفقدان زوجها وترميها، كذلك فقدان أولاده أربعة في معركة قادسية وتجرعها اليتم و محنى الشكلي، ولكنها لم تكن شيئا أمام موت صخر، فالشاعر العاطفية التي حصرت الخنساء نفسها التي سنطلق منها الدراسة لبيان الأثر فهذا الحب المفرط لأخويها جعلها تجود بالفرد وتلزم البكاء حتى أضحت حياتها مأساة متكررة، فقد ظلت أسيرة أفكارها المأساوية النابغة من نفسيتها المفجوعة حتى أنها لم تصد لقضايا المجتمع في شعرها وان التزم المأساة يعد الشكل لاحتضان المضامين الحزينة التي آثرت بشكل واضح على اختيارها لصياغة الشعرية والتي عبرت عن حالة الصراع النفسي في دواخل الشاعرة[٣٦].

الموت عند الشعراء الإسلاميين:

جاء الإسلام وتقلّبت الأوضاع وتبدّلت المفاهيم وتغيّر طراز المعيشة والحياة حتى وجدنا النظام بدل الفوضى، ومعيشة مطمئنة بدل القتال والاعتقاد بالحياة الأخرى بعد هذه الحياة بدل الشكوى من الزمان والاعتقاد بالفناء في كل شيء، وقد أصبح الاتجاه للّه وحده لا شريك له، وأصبح الإنسان لا يفكر إلّا بالخير والعمل الصالح.

تأثر الجاهلي بالأمس من جفاف الصحراء وقسوة الشتاء والصيف، فلما أسلس القياد لتعاليم الدين وجدناه سهل الخلق، معتقداً بشرف النفس والتقوى، ولا ما كان مبعثاً للفخر بالأمس، وعندما نطالع شعر الخنساء الإسلامي، نجدها معتقدة بالحياة الأخرى وداعية إلى الصبر.

الإسلام و تأثيره في شعر الخنساء:

الخنساء من الشعراء المخضرمين الذين عاصروا الجاهلية وظهور الإسلام وظهور معجزته الإسلام، وهي القرآن، تلك المعجزة الأدبية الكبيرة في تاريخ الأمم وشاهدت المعارك الأدبية بين الإسلام وأعدائه وأنصاره منهم: حسّان بن ثابت وهو شاعر النبي صلى الله عليه وآله سلم، ويدافع عن الإسلام بشعره؛ وبالنسبة إلى الخنساء فقد أنشدت أشعاراً في زمن الإسلام، وإن قيل ليس الخنساء الشعر في زمن الإسلام هي أنشدت أشعاراً في زمن الإسلام كما يعتقد نجيب عَطوِي فليس من المعقول أن تعقم هذه

الشاعرة مرة واحدة وتعطّل الموهبة التي رأيناها تبلغ بالخنساء ذروة المجد، وتجعلها رائدة شعر الرثاء ومن فحول الشعراء[٣٧].

ومن ثمَّ لكي نُفَرِّق بين ما هو جاهلي من شعر الخنساء وبين ما هو إسلامي، من غير الممكن الجزم بالزمن، إلّا أن نعدَّ شعرها الإسلامي هو الذي يلائم تعاليم الإسلام وعقائده، وآدابه ويخالف عقائد الجاهلية، والشيء الذي يَلفت نظر الذين يدرسون الأدب العربي عند ظهور الإسلام أن التغيير لم يكن في شيء سوى المعاني التي تتنافي عقائد الإسلام وآدابه بوجه عام كما نرى في شعر الخنساء واختلاف اعتقادها في زمن الإسلام وقبله.

يَا عَينِ جودي بِدَمعٍ منك مُهراقِ إذا هَدَي النّاسُ أو هَمّوا بإطراقِ
إنّي تُذَكرني صَخراً إذا سَجَعَت على الغُصُونِ هَتُوفٌ ذَاتُ أطوَاقِ
وَ كلُّ عَبرَى تَبيتُ اللَّيْلَ سَاهِرَةً تَبكي بُكاءَ حَزِينِ القَلبِ مُشتَاقِ
لَا تَكذِبَنَّ فَإنَّ المَوتَ مُختَرِمٌ كلَّ البَرِيَّةِ غَيرَ الواحِدِ الباقي[٣٨]

وهذا الشعر الذي نراه ملائماً العقائد الإسلام ومخالفاً لعقائد الجاهلية، يشير إلى أنها لا تنسى صخراً وتطلب من عيونها أن تسكب الدموع ولا تنام الليل من ألم الفراق، وتبكي بلوعة قلبٍ مشتاق إليه وتبكي وإن كانت موقنة بأن الموت حق ولا يبقي سوى الواحد القهار، كما نرى في محكم كتابه جلَّ وعلا: « كلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّك ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكرَامِ»[٣٩] ومن ناحية، تأثر الخنساء بالقرآن الكريم واضح ومن ناحية أخرى، فإن المعنى يتنافى مع ما تواضعت عليه الجاهلية، وهي تقول:

ضَاقَتْ بَي الأرضُ وانقَضّتْ مخارِمُها حتى تَخَاشَعَتِ الأعلَمُ و البِيدُ
وقائلينَ تَعَزَّي عَن تَذَكرِهِ فالصَّبرُ أليسَ لِأَمرِ اللَّهِ مَرْدودُ[٤٠]

وهي من شدّه الحزن ضاقت بها الأرض وتخاشعت الجبال، وفي هذه الحال يقول لها الناس لابُدّ لك من التأسى عن ذكره بالصّبر؛ لأنَّ الموت هو من أمر اللّه كما نجد في قوله تعالى: « وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ »[٤١].

وفي رثائها لمعاوية أخيها أقسمت لتبكي عليه مادامت سُنّة الموت قائمة، ومادام اللّه يتوفّى الأرواح وهذا الكلام يتنافى مع ما يقوله الجاهليُّ وهو يعدّ الدهر مسؤولاً عن موت البشر.

فَأَقسَمتُ لَا يَنفَك دمعي وعَولَتي عَلَيك بِحُزنٍ مادَعَا اللّه داعِيَه[٤٢]

و هي تقول في رثاء صخر:

وَ مَايَبكونَ مثلَ أَخي وَ لكن أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بالتّأسِّي
فلا واللّهِ لا أنساك حتى أُفارِقَ مُهجَتي، ويُشَقَّ رَمْسِيُ[٤٣]

تفتخر في هذين البيتين بأن ليس أحد في مكانة أخيها، ولا تجد مُصيبةً كمصيبته، ولكنّها على رغم من ذلك تُعزّي نفسها بالصبر، وتقسم أنها لا تنساه، وكل هذه المعاني التي أشرنا إليها تخالف ما جاء في الجاهلية، ونستطيع باطمئنان أن نضمّه للشعر الذي قالته زمن الإسلام كما أنَّ القسم باللّه إلى جانب الصبر يدلّ على تأثيرها بالإسلام؛ ومن شعرها:

فَخَرَّ الشَّوامِخُ من قَتلِهِ وَ زَلزِلَتِ الأرضُ زِلزالِها
و زالَ الكواكبُ مِنْ فَقدِهِ وَ جُلِّلَتِ الشَّمْسُ أجْلَالَها[٤٤]

فى هذا الشعر تشير إلى أنّ الجبال تهاوت لِقتل أخيها، وهذا تصوير قرآني كما جاء في قوله تعالى: « تَكادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا»[٤٥] وكما جاء في قوله تعالى: « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا *وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا »[٤٦] إنها جعلت موت أخيها سبب اختلال الظواهر الطبيعية حيت تقوم الساعة وهو تصويرٌ مألوف عند الجاهليين وأتت بالفعل بالماضي حتى لتبعد الشك عن هذه المماثلة وهي تقول:

هَمَمتُ بِنَفسِيَ كلَّ الهُمومِ، فَأولى لِنَفسيَ أولَى لها[٤٧]

الإشارة بأثر الهموم الخطيرة على النفس كما نجد في القرآن الكريم في قوله تعالى «فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى* أَوْلَى لَك فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَك فَأَوْلَى»[٤٨] يُفسِّر الزمخشريُّ في الكشّاف « أولى لك » فيقول: «بمعني ويل لك وهو دعاء عليه بأن يليه مايكره»[٤٩]؛ ثمّ تقول الخنساء:

فإنْ تَصبِرِ النَّفْسُ تَلقَ السُّرورَ و إنْ تَجْزَعِ النَّفسُ أشقَى لَهَا[٥٠]

وهي في قولها هذا تنظر إلى دعوة القرآن الكريم إلى الصّبر، والصّبر هو مفتاح السرور والفرج، والجزع ترتَّب عليها الشقاء في الدنيا، والعذاب في الآخرة كما نرى في قوله تعالى:« قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ»[٥١]؛ وقوله تعالى: « وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا»[٥٢].

يَتَبَيّن من الشعر الذي نظمته الخنساء في الإسلام مطابقة ألفاظه ومعانيه لدين الحنيف، وهي لاتتعجب من المنايا كما تتعجب في الجاهلية، و نرى لفظ الإسلام والقرآن يتردّد في قصائدها كما تقول:

كأنّما خَلَقَ الرَّحمَان، صُورَتَهُ دينَارَ عَينٍ يراهُ النَّاسُ مَنْقُودا

اذهَبْ حَرِيباً جزاك اللّه جَنَّتَهُ عَنَّا وخُلّدتَ في الفِردَوسِ تخليدا

قد عِشتَ فينا ولا تُرمى بِفَاحِشَةٍ حتّى تَوَفّاك رَبُّ النَّاسِ مَحْمُودا[٥٣]

وعندما وفدت هي وقومها على رسول الأكرم صلى الله عليه وآله سلم في السنة الثامنة للهجرة و كما جاء في عدة مصادر استجابت للإسلام[٥٤]، وخلعت الصدار، وانصرفت عن البكاء في حالة كانت تبكي قبل الإسلام بكاءً شديداً، و تلبس النعلين، و تخلق الرأس، وهذه من عادات الجاهلية، وهي تقول:

فلا وأبيك ما سَلَّيتُ صَدْري بِفَاحِشَةٍ أَتَيتَ ولاعُقُوقِ

ولكنّي وجدتُ الصَّبر خَيْراً مِن النَّعلَيَنِ والرَّأس الحَليقِ[٥٥]

كما يفهم من شعرها صبرها على قتل أخويها وأبنائها بعد الإسلام، ومواصلة بكائها وحزنها بعد الإسلام على سادات من مضر بسبب هلاكهم في الجاهلية، وهم عصاة للهب وحشو جهنم وذلك الذي يزيد شاعرتنا وَجعَاً وتواصل البكاء عليهم[٥٦].

الخاتمة:

بعد دراسة أشعار الخنساء في الجاهلية وصلت المقالة إلى أنّ الخنساء ترى الموت نهاية الحياة، وسبب الموت هو الدهر؛ وبرزت في أشعارها الجاهلية الألفاظ التي تلائم نظرتها إلى الموت مثل: الاندثار والتفجُّع والبلى وأودي به، وبعد إسلامها تغيّرت نظرتها إلى الموت، وتسربت الرؤية الإسلامية بالنسبة إلى الموت في أشعارها، وهذه الفكرة أو الرؤية تأمل في أن الموت ليس نهاية الحياة، بل هو بدءٌ لطيران الروح إلى عالم آخر تحيا فيه الأنفس من جديد وتعيش إلى الأبد؛ وزيادة عن هذا، هي تدعو نفسها بالتأسى والصبر على قتل أخيها بدل الجزع، وفي أشعارها الإسلامية ألفاظاً تناسب هذه الفكرة، مثل: الصبر والتأسى والرحمان والجنَّة والخلود والفردوس وتُوفّى و زلزلت وربّ الناس؛ وفي النهاية تصل إلى أنَّ مضمون أشعارها وألفاظها في الإسلام تغيّرت عن الجاهلية.

الهوامش:

(١) لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، مادة الراء ج١٤، ص٣٠٩.

(٢) الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام، حسن جاد حسن، دمشق، دار العرب للدراسات والنشر والترجمة، ٢٠١٢م، ص ١٤٧.

(٣) فنون الأدب العربي، الرثاء، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٥٥م، ص٥-٦.

٤ مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، حسين عطوان، دار الجيل، بيروت، ط ٢،. ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٧ م، ص: ١١١.

٥ ديوان الخنساء، تماضر بنت عمرو، الخنساء، ترجمه: حمدو طماس، ص ٨٩.

٦ الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، بشرى محمد علي الخطيب، مطبعة الإدارة المحلية، بغداد، ١٩٧٧م، ص٢٤٣.

٧ شعر الرثاء في العصر الجاهلي دراسة فنية، مصطفى عبد الشافي الشورى، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ط ١، ١٩٩٥ م، ص١٠٠.

(٨) ديوان الخنساء، تماضر بنت عمرو، الخنساء، ترجمه: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٨هـ، ص٤٨.

(٩) الحيوان، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ، ج٧ ، ص٤٥٣.

(١٠) الأغاني، أبي الفرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط٢، ج ١٥،ص ٧٢؛ وجواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، مؤسسة المعارف، بيروت، ج٢، ص١٣٩.

(١١) معجم الشعراء المخضرمين والأمويين، عزيزة فوال بابتي، جروس برس، طرابلس، لبنان، ط١، ١٩٩٨م، ص١٣٤.

(١٢) نفس المرجع، ص ١٣٤.

(١٣) الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣ هـ، ج١، ص ٣٣٥.

(١٤) نفس المرجع، ج١، ص ٣٣٢؛ وبلاغات النساء، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر ابن طيفور، صححه وشرحه: أحمد الألفي، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة، ١٣٢٦ هـ – ١٩٠٨ م، ص ١٦٩.

(١٥) ديوان الخنساء، تماضر بنت عمرو، الخنساء، ترجمه: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٨هـ، ص٢٨.

(١٦) محاضرات في عنصر الصدق في الأدب، محمد النويهي، معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٩م، ص ٤٨.

(١٧) خزانة الأدب و لباب لسان العرب، عبد القادر البغدادى، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربى، القاهرة، ط١، ١٩٦٧م، ج١، ص٤٣٥.

(١٨) الحياة والموت فى الشعر الأموي، محمد بن حسن الزير، دار أمية لنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٩٨٩م، ص٦٧.

(١٩) ديوان زهير بن أبي سلمى، زهير بن أبي سلمى، دار بيروت، للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ، ص٨٣.

(٢٠) سورة الواقعة، الآية ٤٧.

(٢١) فى الأدب الجاهلى، طه حسين، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط٣، ص١٨.

(٢٢) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، لبيد بن أبي ربيعة العامري، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٣م، ص٨٨.

(٢٣) الحياة والموت، مصطفى عبد المجيد جياوك، منشورات جمهوريه العراقية، وزارة الإعلام، بغداد، ط١، ١٩٧٧م، ص١٥٥.

(٢٤) ديوان الخنساء، تماضر بنت عمرو، الخنساء، ترجمه: حمدو طماس، ص ١٢٠.

(٢٥) نفس المرجع، ص٦٢.

(٢٦) ديوان الخنساء، تماضر بنت عمرو، الخنساء، ترجمه: حمدو طماس، ص ٥٨.

(٢٧) نفس المرجع، ص ٧٩.

(٢٨) نفس المرجع، ص ٧٤.

(٢٩) نفس المرجع، ص ٨٤.

(٣٠) الخنساء في مرآة عصرها، إسماعيل القاضى، وزارة المعارف، بغداد، ط١، ١٩٦٢م، ص٥٣.

(٣١) ديوان الخنساء، تماضر بنت عمرو، الخنساء، ترجمه: حمدو طماس، ص ١٣.

(٣٢) نفس المرجع، ص ٩٥.

(٣٣) موجز دائرة المعارف الإسلامية، إبراهيم زكى خورشيد وآخرون، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ط١، ١٤١٨هـ، ج١٥، ص٤٧-٥٤.

(٣٤) ديوان عبيد بن الأبرص، عبيد بن الأبرص، شرحه: عمر فاروق الطبَّاع، دار أعلم للطباع والنشر، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ١٣.

(٣٥) ديوان زهير بن أبي سلمى، زهير بن أبي سلمى، دار بيروت، للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ، ص٨١.

[٣٦] لغة الرثاء عند الخنساء، الآء محمد لازم، مقالة مجلة كلية التربية الأساسية، الجامعة المستنصرية، مجلد ٢٠، العدد ٨٤، ٢٠١٤م، ص ١٦٠.

(٣٧) الخنساء بنت عمرو شاعرة الرثاء فى العصر الجاهلى، على نجيب عطوي، دار الكتب العلمي، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ، ص١٥٠.

(٣٨) ديوان الخنساء، تماضر بنت عمرو، الخنساء، ترجمه: حمدو طماس، ص ٨٩.

(٣٩) سورة الرحمن، الآية٢٦- ٢٧.

(٤٠) ديوان الخنساء، تماضر بنت عمرو، الخنساء، ترجمه: حمدو طماس، ص ٣٩.

(٤١) سورة الرعد، الآية ١١.

(٤٢) ديوان الخنساء، تماضر بنت عمرو، الخنساء، ترجمه: حمدو طماس، ص ٣٩.

(٤٣) نفس المرجع، ص٧٢.

(٤٤) نفس المرجع، ص١٠١.

(٤٥) سورة مريم، الآية ٩٠–٩١.

(٤٦) سورة الزلزلة، الآية ١–٢.

(٤٧) ديوان الخنساء، تماضر بنت عمرو، الخنساء، ترجمه: حمدو طماس، ص ١٠٠.

(٤٨) سورة القيامة، الآية ٣١–٣٥.

(٤٩) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربى، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ج٤، ص٦٦٤.

(٥٠) ديوان الخنساء، تماضر بنت عمرو، الخنساء، ترجمه: حمدو طماس، ص ١٠٠.

٥١ سورة الزمر، الآية ١٠.

(٥٢) سورة الإنسان، الآية ١٢.

(٥٣) ديوان الخنساء، تماضر بنت عمرو، الخنساء، ترجمه: حمدو طماس، ص ٣٨.

(٥٤) المغازى، محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، الواقدي، تحقيق: مارسون جونس، دار الأعلمي، بيروت، ط٣، ١٩٨٩م، ص٣٤٦.

(٥٥) ديوان الخنساء، تماضر بنت عمرو، الخنساء، ترجمه: حمدو طماس، ص ٨٧.

(٥٦) الخنساء أم الشهداء، عبد المنغم الهاشمى، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤م، ص٧٨.

Lamentations in the poems Khansa between ignorance and Islam

Assistant prof Dr.Abdul Razak Hassan Rahmani
University of Hormozgan Mukhtar Abdi
(Shiraz / Iran University)
(rahmani6038@gmail.com)

Abstract:

Khansa one of the Arab poets realized that ignorance and Islam It includes the contents of the notice of pride and self-pity The predominantly lamentation proud of what happened to her in her life from the death of her two brothers Fedor more poems lament about her brother in ignorance and Islam So this article want to study in self-pity look ignorant and Islamists Through poems Khansa And access to the difference between ideas In these two eras and influence of Islam upon it and ideas.

Key words: Pre-Islamic literature, Islamic literature, Lamentations, death, Khansa.